٧

ملامح من شخصية المهلب بن أبي صفرة العُمانيّ.

أ. د. محمد أحمد الديباجي.
عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة، المملكة المغربية
medibaji@hotmail.com

في تاريخ الأمم والشعوب ولا سيما تاريخ الأمم العريقة الضاربة في التاريخ والحضارة الإنسانية، مثل الأمة العربية، شخصيات وأعلام تركت بَصْمَتها في التاريخَ، وخلّفت وراءها لأبنائها وأحفادها من الأعمال والآثار ما تعتز به وتتناقله جِيلا بعد جيل، وأمّة بعد أخرى على تعاقب الأزمنة والدهور، وتصاقب السنين والشهور.

ومن هذه الشخصيات التي يحق للأمة العربية بصفة عامة، ولسلطنة عُمان بصفة خاصة، أن تعتز بها القائدُ الهمام المهلبُ بنُ أبي صفرة الأزدي العُماني. لقد شهد هذا القائد النور في بلده وبلد أجداده: أرض عُمان المباركة، درج فوق تربتها وليداً، وشاباً يافعا، وتشبّع فيها بالخصال الحميدة والشيم العربية العريقة، ولا سيما الشجاعةُ والحزم. فقد تربى عليهما؛ إذ كان أبوه سيدَ قومه وأشجعهم وأكرمهم. ورَوى الواقِدي وابنُ حجر في (الإصابة) وغيرهما أن رسول الله، ﷺ، هو الذي لَقَّبَهُ "أبا صفرة" عندما وفد عليه ليعلن إسلامه وقال له الرسول الكريم: "أنت أبو صفرة فَدعْ عنك سارقا وظالما".

ورُوي أن أبا صفرة تقدم الوفدَ الذي خرج من عُمان لتعزية أبي بكر الصديق وأهلِ المدينة في وفاة رسول الله، ﷺ، فاستقبلهم الصديقُ خيرَ استقبال وشكر أفضالهم، وحكى لهم حب النبي الكريم لعُمان وأهلها.

ثم انتقل أبو صفرة إلى العراق وشارك في الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وفي الحروب التي كان يُضْرِمها الخارجون على بني أمية هنا أو هناك في العراق وغيره، وشارك فيها بجانبه أبناؤه، وكان المهلّبُ أكثرَهم شجاعةً

وإقداما وخِبرة بالحروب. ولما نثر عبد الملك بن مروان كِنانته ليحارب الأزارقة ـ وقد أرهقوه ـ لم يجد فيها عودا يرميهم به أصلبَ من المهلب، فسلّطه عليهم، فحاربهم محاربة الأبطال. وما زال معهم في أخذ وشدٍّ، حتى انتصر عليهم نصرا عزيزا مؤزّرا، وقطع دابرهم. وبذلك خَلُصَ المُلك لبني مروان. ولولا المهلب لدكّ الأزارقةُ عرشَ بني أمية وقضوا على حكمهم وهو بعدُ في مهده.

وقد تحدث المؤرخون القدماء، ورواة اللغة والأدب، عن المهلب وذكائه ودهائه وشخصيته. ولعل خير ما تتجلى فيه شخصية المهلب وصيتُه لأبنائه عندما نزلت به المنيّةُ، وقد أورد هذه الوصية أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه (التعازي والمراثي) (حققه أ.د محمد الديباجي وطبعه مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٨). وقد جمع المبرد في هذا الكتاب، الذي ألفه "والشمس على أطراف النخيل" كما قال (أي في آخر عمره)، جمع فيه جملةً من الوصايا التي تركها عظماءُ الرجال لأبنائهم عندما نزل الموت بساحتهم. ومن هؤلاء الرجال الذي اختارهم أبو العباس المبرد: المهلبُ بن أبي صفرة. وهي وصية مهمة جدا؛ لأنها خلاصة العمر، وفيها تتجلى الكثير من ملامح شخصية المهلب.

ويبدو المهلب من خلال وصيته هذه رجلاً مؤمنا متشبّعا بإيمانه، حريصا على الائتمار بأوامر الله، والانتهاء بنواهيه، والسعي إلى الفوز برضاه في دنياه وآخرته، فقد افتتح وصيته بقوله لأبنائه: "أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسئُ في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمر الديار، وتعز الجانب. وأنهاكم عن معصية الله، فإنها تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفرق الجمع، وتذر الديار بلقعا، وتذهب المال، وتطمع العدو، وتبدي العورة". واختتم وصيته بقوله لأبنائه: "وليكن أوَّل ما تبدؤون به إذا أصبحتم تعليم القرآن والسُّنن والفرائض".

كما يبدو المهلب من خلال وصيته هذه رجلا قوي الشخصية، إذا وعد وفّى، وإذا قال فعل. فالرجولة إنما تكون بالفعل لا بالقول؛ إذ كان فضل الرجل يظهر في فعله لا على طرف لسانه، ولا خير فيمن يقول ولا يفعل، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ (الصف: ٣). وفي هذا يقول المهلب: "يا بَنِيَّ إني أحبُّ للرجل

منكم أن يكون لفعله الفضل على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل على فعله. يا بنيَّ، اتقوا الجواب وزلة اللسان، فإني وجدت الرجل تَعْثُرُ قدمه فيقوم من زلَّته وينتعش منها، ويزل لسانه فيوبقه، وتكون فيه هلكته، وإياكم والخفة في مجالسكم وكثرة الكلام، فإنه لا يَسْلَمُ منه صاحبه. وأدّوا حق الله عليكم فإني قد أبلغت إليكم في وصيتي واتخذت لله الحجة عليكم".

وفي وصيته يظهر حرصه على التشبث بالأخلاق التي ينبغي أن يسود بها سيد القوم وقائدهم. يقول: "يا بنيَّ، أحبوا المعروف، واكرهوا المنكر واجتنبوه، وآثروا الجود على البُخل، واصطنعوا العَرب وأكرموهم، فإنّ العربيّ تَعِدُّهُ العِدَةَ فيموت دونك ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه، في احتماله لها، وشكره والوفاء لصاحبها. يا بنيَّ، سوّدوا كباركم واعرفوا فضل ذوي أسنانكم تعظموا به، وارحموا صغيركم وقربوه وألطفوه، واجْبُرُوا يتيمكم وعودوا عليه بما قدرتم، وخذوا على يدي سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم بما قدرتم عليه، واصبروا للحقوق ونوائب الدهر، وتأدبوا بآداب الصالحين من سلفكم، ولا تقاعدوا أهل الدعارة والربا، ولا يطمع في ذلك منكم طامع".

وتظهر في وصيته هذه خبرته الواسعة بالحروب، فنجاح القائد وظفره في الحروب لا يتوقف على شجاعته فحسب، بل يتوقف قبل كل شيء على الدهاء والذكاء والمكيدة، ثم على الثبات في مواجهة العدو، فيقول المهلب: "وعليكم بالتماس الخديعة، في الحرب، لعدوّكم، وإياكم والنَّزق والعجلة، فإن المكيدة والأناة والخديعة في الحرب أنفع من الشجاعة. واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن ظفر امرؤ وقد أخذ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمر من وجهه، وإن لم يظفر قال: ما ضيّع ولا فرّط ولكن القضاء غالب. والزموا الحزم على أي الحالتين وقع الأمر، والزموا الطاعة والجماعة، وإياكم والخلاف".

وفي هذه الوصية تظهر شيمة أخرى من شيم القائد، وسيد القوم، وهي الاعتناء بقومه وإكرامهم والحرص على جمع شملهم، وضم شَعَثِهم. يقول المهلب: "يا بني، قومكم قومكم، إنه ليس لكم عليهم فضل بل هم أفضل منكم إذ فضّلوكم وسوّدوكم

ووطّؤوا أعقابكم، وبلغوا حاجاتكم لما أردتم، وأعانوكم، فلهم بذلك حق عليكم، وبلاء عندكم لا تؤدّون شكره (ولا تقومون بحقه، فإن طلبوا فأطلبوهم، وإن سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدِؤوهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غشوا أبوابكم فلتفتح لهم ولا تغلق دونهم. يا بنيَّ، إذا غدا عليكم رجل أو راح فكفى بذلكم مسألةً وتذكرةً بنفسه. يا بنيَّ، ثيابكم على غيركم أحسنُ منها عليكم، ودوابّكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم".

وخلاصة الكلام، أن المهلب بن أبي صفرة عَلَمٌ باذخ من أعلام الأمة العربية، ومن خيرة الأبناء الذين أنجبتهم هذه الأرض، أرض عمان المباركة. ومما تجدر الإشارة إليه والتنصيص عليه أن أسرة المهالبة أنجبت ثلة من السادة والقادة والعلماء والشعراء والأدباء، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأديب اللودعي، والوزير الألمعي، أبا محمد المهلبي، وزير معز الدولة البويهي، فقد جمع علما جمّاً، وحزما وعزما، وذكاء متوقداً، وكرما حاتميا، وقد قال فيه كثير ممن ترجموا له: "إنه كان أعجوبة من أعاجيب الدهر".

فنحن نحيي أرض عمان المباركة، ونحيي تاريخها المجيد، وأهلها الطيبين الكرماء. ونحيي بكل إجلال وتقدير واحترام السلطان قابوس المعظم وندعو له بالنصر المبين والعز المكين ودوام الصحة والعافية، وللشعب العماني الشقيق بالرقي والازدهار.